مخطوط أُنف

كتاب الفتح الربّاني والفيض الرحماني

تأليف

الشيخ الامام والحبر الهمام العالم العلّامة

الشيخ عبد الغني النابلسي

قدس الله سرّهُ العزيز امين

تعريف له

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني

وجدنا في مكتبة كرسي بطريركية الروم الكاثوليك ، في عين تراز (لبنان) هذا الكتاب الخطّي من تأليف الشيخ عبد الغني النابلسي الشهير شارح ديوان ابن الفارض ، وصاحب المؤلفات الصوفية العديدة . ولم نعرفه مطبوعاً ، بل لم نرَ له ذكرًا بين آثار المؤلف ، في كتابات من ترجم له من مؤرخي الآداب العربية الّا بروكلمان ، فانه احصى للشيخ عبد الغني ٨٥ اثرًا ذكر فيها تحت الرقم ٦٨ (الجزء الثاني من تاريخه ص ٣٤٨) اسم «الفتح الرّباني والفيض الرحماني » ، مشيرًا الى ان له مخطوطة في مكتبة برلين .

اما المخطوط الذي وقفنا عليه فقد كتب بخط نسخي جميل اسود يشبه حروف المطابع ، وعناوينه بالحبر الاحمر ، يحتوي على ١١٢ صفحة ، بطول ٢١ سنتيمترًا ، بعرض ١٥ سنتيمترًا ، وعرض هامشه ٦ سنتيمترات ، على ورق حجيج ، بدون تجليد ، يشتمل على سبعة ابواب :

١ : في بيان الذنب .
٢ : في التوبة .
٣ : في العقيدة الصحيحة .
٤ : في بيان الكفر .
٥ : في بيان الاسلام .
٦ : في بيان الايمان .
٧ : في بيان الاحسان .

وكانت خاتمة كتابته في ١٤ رجب الفرد سنة ١١٥٤ للهجرة ، بيد اسماعيل بن خليفة الحسني الشامي ، وقد ذكر الناسخ على احد هوامشه : انه بلغ مقابلة على النسخة التي هي بيد المؤلف نفسه . وان الشيخ النابلسي صدّر كل باب من ابواب مؤلفه هذا ببضعة ابيات من الشعر ضمّنها خلاصة ما احتواه كل باب من المعاني والشروح . والصفحة من هذا الكتاب تحتوي على ٣٧ سطرًا وفي كل سطر ١٤ كلمة ، وعلى هامشه بعض شروح لمطالبه . ورأينا تحت اسم المؤلف الذي منه الناسخ بالنعت المذكور اعلاه ، في صفحة عنوان الكتاب الاولى ، هذه الكتابة مذيلة بسبعة ابيات من الشعر وهي بخط مختلف :

« لخادم تعالى مؤلفه ومنسوب صيغة محمد بن محمد الشافعلاني الازهري.

لعمرك هذا الفتح والفيض والهدى ... حباهُ لنا غيث الغنى مع الندى
تسلسل من بحر الغيوب علومه ... فأروت قلوباً شفّهـا وهيجُ الصدا
ونظّم عقد الدرّ منه لغائص ... وفتّح روض الفضل من روضه الندى
ونادى لسان الحال منه أمن صدِ ... اكوثرنا المورود عذباً مبرّدا
مزجنا به البحرين بحر حقيقةٍ ... وشرعٍ فيا طلّاب مدوا لنا يدا
وما مالكٌ الّا كشفنا غويصهُ ... ولا موعرٌ الّا بنا قد تمهّدا
فقل لغويّ [1]فيضه بدا ... فان انت لم تدركه خاتُك ملحدا »

ولا نتعرض لذكر ما يتضمنه كل باب من ابواب هذا المخطوط خوف الاطالة ، لكننا نثبت مقدمته مع الباب السادس منه في الايمان ، ليقف القارئ على سياقه ونهجه ، غير متعرضين للرد على المؤلف في بعض آرائه ومناحيه .

---

١) كلمة غير مقروءة .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اظهر العالم من كنز الوجود واخرجهُ من محض العدم، ووصف به نفسهُ نفسه في موطن الامكان لتتميّز بذاتها حضرة القِدَم ، واثبت لنوره نورًا قائمًا بنفسه غير متصل به ولا منفصل عنه ، وجعلهُ مرآةً لظهور وجوهه فيه بانواع تجليات الكنه ؛ ثم اخرج من ذلك النور نورًا آخر ليس عين ذلك النور ولا غيره، وكوّن فيه عرشهُ العظيم وكرسيه الذي جمع شرّهُ وخيره . ثم خلق السماوات السبع في جوف ذلك الكرسي واتقن التكوين وأودع العناصر الاربعة في جوف فلك القمر اتركيب المولدات فتبارك الله احسن الخالقين . ثم جعل نشأة آدم آخر مولد في العالم وجعلهُ نسخةً لجميع صور هذا الوجود، وقابل به حضرة صفاته واسمائه وافعاله واحكامه فكان هو المقصود . ثم نسخ منه صحفاً كاملة وكتباً محمولة بالعناية حاملة ، وسكب في قالبه اسرار النبوّة وأودع في نهاره انوار الفتوة واطلع كواكب الازل من سموات صورته المشرقة ولم يزل يتطور في الهياكل الفاضلة حتى طلعت شمس الأحدية على فلك تلك القامة المشرقة صلى الله وسلم عليه وعلى كل من تبختر بحلّته الطاهرة وتمشّى على انهار حديقته الظاهرة ولبس نعليه وثبت على صراط بقدميه خصوصاً غذاء ارواح المحبين وشراب تسنيم المقرّبين ، محمد الكل بجزئه الذي لا يتجزأ ومن الى حقيقته كل حقيقة في الكونين تعزى، المتقدم بالنور المتأخر بالظهور ، محمّد المحمود ، حدقة عين الوجود ، ورضوان الله تعالى عن آله الآتين اليه بالروحانيات وان اختلفوا بالاجسام ، واصحابه الذين هم معه بالاستمداد التام وعن التابعين لهم باحسان في كل زمان ومكان.

اما بعد فان العبد المفتقر الى مولاه والراجي عفو ربه وهداه ، عبد الغني ابن اسماعيل بن عبد الغني بن اسماعيل بن ابرهيم بن احمد النابلسي ، الحنفي

مذهباً ، القادري مشرباً ، الدمشقي وطناً ومولداً ، ادخله الله تعالى في منشور السعداء ، ورحم اسلافه الماضين ، ولطف به وبجميع المسلمين امين ، يقول في اول كلامه على مقتضى حاله ومقامه :

بدر تم لاح في الافق فوق غصن باجمال سقي
وبه الالباب هائمة سكرت منه فلم تفق
عطرت روضي نسائمه حين وافت بالشذا العبق
وفؤادي فيه ذو شغف دائماً والجفن ذو ارق
واصطباري يوم جفوته ما بقي والوجد فيه بقي
هائم صب كثير جوى عنه شذت سائر الطرق
خطفته منه بارقة غيرها في القلب لم يرق
فأدارت كاس خمرته فهو منها اليوم في غرق
وأثارت عرف روضته في الورى طوبى لمنتشق
كيف لا اختال من مرح وملیح القد معتنق
فاسألوا عيني فان بها لمحة في داخل الحدق
تلثها من حسن بهجته من لو بدا للكون لم يطق
ثم ذوقوا ما بقي بفمي من بقايا خمر كل تقي
هذه أذني لقد سمعت طيب ذاك الصوت فاسترق
واسألوا أنفي فقد نفحت فيه ريا نسمة الغلق

يا بني قومي خذوا خبري عن جوى قلبي وعن قلقي
وانظروا نحوي فان خفيت شمس ذاتي فاشهدوا شفقي
كلما تدرون من حجبي لصيد في الورى وشقي
واحذروا في الله ان تقفوا عند شيء لاح في الافق
فالبرايا كلها فتن اي جمع غير مفترق
كلها تمضي بأجمعها ثم يبقى الاثم في العنق
واحذروا ان تعبدوا صنماً نحتته فكرة فبقي

جـلّ ربي في تنزّهه عن وجودات على طاق
فاسرعوا واعوا الحروف بنا عندكم من صفحة الورق
قبل ان يبدو المئون لكم يأخذ البـاقي من الرمق
واسلكوا سبل النجاة على دين طهٍ زاكي الخُلق
ثم كونوا اسر سنّتـه وبها قاسُوا على نسق
وابعثوا في دعوة وسلوا في غدٍ امناً لذي فرق
وصـلاة الله دائمـةٌ مع سلام غير منمحق
للـذي انواره سطعت فأحالت صبغـة الغسق
احمد المختـار سيّدنا من به قلبي مناهُ لقي
مـا بدا الكون منشئهُ خلف ستر ابيض يقق

اعلم ايها الانسان الداخل في حصن حصين من الايمان والمتدثم ان شاء الله تعالى بنسيم الروح والريحان ، ان كتابي هذا ما جمعته إلّا لمن قصر ليله لطول نهاره ووقف في نشأة نفسه الزكية على مراكز اضطراره ، ولم يحتجب بالعين المعجمة عن العين ، ورفع بيد روحانيته حجاب البين من البين ، وربما ينتفع به الاعمى بدلالة البصير ، ويتناول بيده ذيل الكمبة صاحب الباع القصير . فالله الله يا ايها الواقفون مع ما ظهر لهم من لمحةٍ من لمحات انوار الشريعة ، والمتحجّبون بسبب غشاوة دخان الذنوب التي لا يشعرون بها في مطامير الطبيعة . ويا ايها المستسنون ورم الزخارف الدنيوية ، ويا ايها المعرضون بقلوبهم الجاهلة لاعراضها بتحسين ظنهم بهم عن اللذائذ الروحانية الاخروية فاحذروا ان تفهموا شيئاً من كلامي بالفهم المعوج وتخرجوهُ على خلاف هذا الدين فتفتروا عليّ وعلى الله ، فاني لم اقصد الّا بيان ما فُتح عليّ مما يوافق الشرع الشريف وان كانت الالفاظ متشابهة ربما يُفهم منها خلاف ذلك فان لي في ذلك عذرًا واضح ، وكل اناء بالذي فيه ناضح ، وما ذلك العذر الّا ان المعاني التي يتخيّلها الانسان ربّما لا يجد لها لفظاً موافقاً لها تؤدّى به من الفاظ اللسان ، وربما امكن ذلك ولكن اشتغل عنها القلب بما يتراكم عليه من المعارف الحسان وبالله المستعان . وقد عزمتُ على الشروع فيما اردتهُ من هذا الكتاب وجعلتهُ تحفةً مني الى

اولي الالباب ، وهو على سبعة ابواب ، تفاؤلًا ان يكون الثامن هو باب الفتح لجنّة الهداية والاقتراب ، على كل من طالعهُ بالقبول وسلك فيه طريق الآداب ، وقد كنتُ اردتُ ان اطيلهُ اكثر من ذلك ولكن خفت من لحوق السأمة والملل للاخوان والاصحاب . وقد سميتُهُ : الفتح الرباني والفيض الرحماني . واسأل الله تعالى ان ينفع به اهل العناية ، ويرشد بسببهِ ارباب الغواية ، وان يختم لنا ولاخواننا المسلمين بالحسنى لتلتحق النهاية والبداية ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وهو حسبي ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

والى القارئ الباب السادس :-

الباب السادس

في الايمان

نور هذا الوجود بالايمانِ ... لا بشمس ولا نجوم دواني
وبهِ الشمس والنجوم جميعاً ... مشرقات من رحمة الرحمان
ولهذا الكون لا يعتريها ... قط الّا عن غفلةٍ وتوان
اي قلب من القلوب تجلّى ... فيه ربي بغير ما ايمان
وعلوم الجميع علوًا وسفلًا ... واردات عن ورده كالزمان
فلك الماء والتراب مضيء ... بضياء الايمان في كل آن
وبه لم يزل يدور ويبدي ... صورًا بابتداعهِ ومعاني
امن الكل من قليٍّ وبادٍ ... عندما امنوا وهم في تدان
ولهم خلقة المهيمن جاءت ... ثم فازوا من سلبها بالامانِ
فتراهم بها يميلون زهوًا ... بين نيل المراد والحرمانِ
وعلى كل حالةٍ هو اولى ... بالذي جاء منهُ للاكوان
وهي ايمانه بهم فلهذا ... مؤمنٌ جاء عنهُ في القرآنِ
والمواليد معدنٌ ونباتٌ ... ثم حيوانها مع الانسان
وكذاك الاباء مع امهاتٍ ... كلهم في غدٍ من الحيوانِ

مؤمنات جميعها باله واحد ما له كما قال ثاني
ولهذا تأتي غدًا شاهدات مثل ما جاء في حديث الاذان
وشروط الشهادة الآن فيها ثبتت بالدليل والبرهان
حيث عنها الاله اخبر بالتسبيح والنطق والغنا في العيان
فتحقق بكل ما قلت وافهم تلو اب الكمال والايقان

اعلم ان الايمان من اشرف الصفات واعلاها وافخر الخصال واغلاها ، وهو من صفات الله تعالى كما ورد في القرآن العظيم ، ان من اوصافه تعالى المؤمن ومعناهُ المصدّق بان جميع ما يظهرهُ من العدم الى الوجود من مخلوقاته موجود عندهُ في حضرة العلم لا ينقص من ذلك شيء ولا يزداد ولهذا نقول: انه تعالى علم نفسه فعلم العالم وحقيقة ايمان سبحانه وتعالى ح علمه بعلمه فالايمان قديم ح باعتبار انهُ صفة لله تعالى كالعلم القديم . واما ايمان الانسان والملك وبقية العالم فهو صفة حادثة من غير اشكال حدثت بحدوث المؤمنين لا يتصور ان تكون قديمة ويكون المتصف بها حادثاً ، فان الاصل اذا كان حادثاً يكون الفرع حادثاً بالاولى ، اذ لا يتصور ان يتصف الحادث بقديم كما لا يتصور ان يتصف القديم بحادث ، فمن سأل عن الايمان ح هل هو قديم او حادث يُقال لهُ هذا اللفظ ينطلق على معنيين مختلفين لا يشبه احدهما الآخر ولا بوجهٍ من الوجوه . المعنى الاول تصديق الله تعالى بذاته وصفاته وافعاله وبفضلاته ، وهذا المعنى قديم لا يتصور ان يكون حادثاً البتة . والمعنى الثاني تصديق المخلوقات بذاته تعالى وبصفاته وبافعاله وبفضلاته ، وهذا المعنى حادث باحداث الله تعالى ذلك في المخلوقات ، لا يتصور ان يكون قديماً البتة . فايما اردت في سؤالك عن الايمان اجبناك به ولا نطلق لك الجواب فنقول قديم او حادث لان في موضع التفصيل خطأ ، وايمان الله تعالى بجميع ما امن به من الاشياء في الازل ايمان سمع ورويّة واحاطة على السواء . واما ايماننا بجميع ذلك فهو ايمانٌ بالغيب ، حتى ان شهودنا لتجلياته تعالى ايمان بها بالغيب ، باعتبار انها تمثل لعقولنا بضربٍ من التجليات ايضاً ، فشهودنا للتجلّي تجلّي آخر ، لا عين التجلّي الاول ، ولا مماثل التجلّي الاول ، وذلك لان الله تعالى ما تجلّى لشيئين في آنٍ واحد مرتين

ولا لشيء واحد مرّة في آنين ، بل بكل آن له تجلٍّ خاص في كل شيء خاص ، وايماننا بالاشياء المحسوسة والمعقولة بضرب من التمثيل ايضاً فانها لولا ان الله تعالى يمثّلها لعقولنا عند مماطاة اسبابها لما ادركناها ، فالبصر مثلاً وارادته نحو الشيء سبب لتمثيل الله تعالى ذلك الشيء في عقولنا حتى ندركهُ ، وكذلك السمع وانصاتهُ سببٌ لتصوير الله تعالى صورة ذلك الصوت مع معناه في العقل حتى ندركهُ ، وهكذا جميع المحسوسات وكذلك جميع المعقولات ، لولا ان الله تعالى يصوّر صورة ذلك الشيء في عقلنا عند جولان القوّة المفكرة في مقدّم الدماغ ثم يخلق لنا ادراكهُ كما ادركناهُ البتّة ، فحقائق ذوات المحسوسات والمعقولات كلها ح انما ادركنا امثالها المخلوقة فينا فلم يتجاوز ادراكنا لانفسنا على ادراكنا للاشياء بواسطة امثالها التي صوّرها الله تعالى في عقولنا فادركنا الشيء بمثلهِ ، ولهذا لم ندرك ذاتهُ تعالى ولا صفة من صفاته لانه لا مثلَ لهُ ولا مثل لصفةٍ من صفاتهِ جلَّ وعلا ، وهذه حكمة عدم ادراكنا لله تعالى وعدم ادراكنا لصفةٍ من صفاتهِ ، فايماننا بجميع المحسوسات والمعقولات في الحقيقة ايمانٌ بالغيب بواسطة امثالها التي صوّرها الله تعالى لنا في عقولنا فادركنا الشيء بمثلهِ ، لان كل شيء لهُ مثلٌ إلّا الله تعالى وصفاتهُ ، لانه لا مثل لهُ ولا مثل لصفة من صفاتهِ ، لانّا لا ندرك الشيء إلّا بالمثل الذي يصورهُ الله تعالى فينا ، فبالضرورة ان ما لا مثل لهُ لا يُدرك ابدًا

واعلم ان الايمان لهُ حقيقة ولهُ صورة ولهُ احوال ولهُ مقامات ولهُ منازل ولهُ اقسام ولهُ ثمرات ، لا بدَّ من بيان ذلك كلهِ فاقول بمعونة الفتّاح العليم : أمّا حقيقة الايمان فهي التصديق وضدّهُ الجحود والتكذيب ، يقال صدّق بالخبر اذا نسب قائلهُ الى الصدق ، وهو مطابقة الخبر للواقع ، فمن صدّق بجميع ما اخبر بهِ محمد صلّى الله عليه وسلّم فقد نسب اخبارهُ الى الصدق ، يعني الى كونها مطابقة لما هو في حقيقة الامر ، وضدّهُ التكذيب وهو نسبة الخبر الى الكذب وهو عدم المطابقة للواقع ، فعلى هذا الايمان والكفر انما يقالان في مقابلة الخبر . يُقال آمن بكذا او كفر بهِ اذا كان خبر الانشاء ، ويكون الايمان بجميع الانشاءات الالهية التي هي الاوامر والنواهي راجعاً الى الايمان

بالله تعالى ونواهيه قطعاً من غير شبهة، لان مضموناتها ليست اخباراً حتى يتصور الايمان بها بل من انشاءات تطلب بها افعال مخصوصة يعود نفعها على المكلف بها. ولهذا نقول: ان من ترك امتثال الاوامر والنواهي جميعها مع تصديقه بانها اوامر الله تعالى ونواهيه، ليس بكافر بل هو عاصٍ، فان كذب بشيء منها فقد كفر البتة، على ان الايمان بالله هو التصديق، وعلى معنى التصديق انه نسبة الخبر الى الصدق لا انه التصور مع الحكم، لان بعض ما يجب الايمان به لا يمكن تصورهُ بوجهٍ من الوجوه البتة لذات الله تعالى وصفاته العليا، وليس المراد بالتصديق حيث فسرنا بهِ الايمان التصور مع الحكم، لان بعض ما يجب الايمان بهِ لا يمكن تصورهُ بوجهٍ من الوجوه البتّة كذات الله تعالى وصفاتهِ، فيلزم ان لا يمكن التصديق بهِ، لان الحكم فرع التصور بل المراد ما ذكرنا، ان التصديق نسبة الخبر الى الصدق. فالتصديق بالله تعالى نسبة الخبر الثابت عند العقل بوجود الله تعالى المنزّه الى الصدق، وكذلك التصديق بصفاتهِ وبانبيائهِ وبجميع ما أخبرَ به عن ذاته تعالى سواء عَقلنا مثلهُ او لم نعقل، فتصور الشيء ح ليس بشرط الايمان بهِ اي التصديق بمعنى نسبة مخبرهِ الى الصدق.

واما صورة الايمان فهي على قسمين. صورة باطنية وهي الاذعان لذلك الشيء الذي صدّق به والاستسلام والانقياد بقلبهِ. وصورة ظاهرية وهي العلم بموجب ذلك بالجوارح، وهاتان الصورتان هما صورتا تلك الحقيقة الايمانية حتى لا تكون ثابتة بدونهما عند من جعل العمل من الايمان، والصواب ان الصورة الباطنية كافية في ثبوت حقيقة الايمان، فاذا زالت زالت حقيقة الايمان، اذ كل حقيقة لا بدَّ لها من صورة، والتصديق بغير اذعان لا يكون البتة، بخلاف الصورة الظاهرة فانها لا تتوقف عليها تلك الحقيقة بل توجد بدونها. قال الله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يرهُ ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يرهُ، فالايمان خير والمعصية شرّ، فلا بدّ من رؤية كلّ منهما، فلو كان العمل شرطاً في ثبوت حقيقة الايمان لكانت المعصية تنافيه فلا يرى خيره وليس الامر كذلك.

وصل

في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ونحو ذلك من الاخبار الدالة على ان امتثال الامر واجتناب النهي من الايمان .

اعلم ان اسم الايمان ينطلق على معنيين : ايمان توقيف وايمان توفيق . وايمان التوقيف قسمان ، توقيف الجنس كايمان المقلدين الجازمين المطابقين ، وتوقيف غير الجنس كايمان اهل النظر الذين اخذوا ايمانهم من الادلة والبراهين العقلية ، وهذان القسمان ايمانهم ايمان العامة . غير ان القسم الاول مختلف فيه ، والقسمان تقليد محض في حقيقة الامر لمن لا يصلح تقليده من غير معصوم من نظر عقل يمكن عليه الخطأ وناظر مشغوف بمعارات الافكار . واما ايمان التوفيق ، فهو ايمان اهل الكشف والعيان المتلقين ذلك من حضرة الرحمان استتاجاً من الاعمال الصالحة المرضية الخالية من البدع . وهذا الايمان هو المراد بقول النبي صلى الله عليه وسلم : لا يزني الزاني ، وهو مؤمن ايمان كشف وعيان بل ينحجب في وقت المعصية فيمتنع عليه الشهود ويقع في الغفلة ، حتى اذا انقضت المعصية رُدّ عليه كشفه وعيانه فرجع اليه ايمانهُ فيرى قبح الذنب فيندم ويستغفر . وهكذا كلما وقع في معصية . وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم كما لا ينفع مع الشرك شيء كذلك لا يضرُّ مع الايمان شيء . خرّجهُ الاسيوطي رحمه الله تعالى ، في الجامع الصغير . والمراد بالايمان الكامل الحقيقي كما ذكرنا .

وصل

ليس من شرط صاحب الايمان الكامل الحقيقي اجتناب الذنوب والمعاصي والا لثبتت العصمة لهُ ، والعصمة ليست ثابتة الا للنبي او مَلَك واصحاب الايمان الكامل محفوظون لا معصومون ومعنى الحفظ ان لا يضرّهم ذنب ابداً ، لا معنى الحفظ ان لا يصدر منهم ذنب ، فان ذلك معنى العصمة لا الحفظ . ارأيتَ قوله تعالى : ان الله يحب التوابين ، والتوّابُ الكثير التوبة ، والكثير التوبة كثير الذنوب فاوجب كثرة الذنب محبة الله تعالى على حسب ما ذكرنا في اهل الشهود ، فانهم اذا رجعوا الى شهودهم بعد غفلتهم وانحجابهم في

المعصية لا بدّ ان يندموا ويستغفروا قطعاً من غير شبهة فيحفظهم الله تعالى بذلك من شؤم المعصية ، فهم محفوظون لا معصومون بخلاف اهل الغفلة من العامة كملا. الافكار وتحوهم ، فانهم اذا وقعوا في المعصية ازداد حجابهم وكثرة غفلتهم وليس لهم حال شهود يرجعون اليه ليروا فيه قبح الذنب ، فربما يوفقون للتوبة بعد حين وربما لا يوفقون فيأخذون بذنوبهم وتوبتهم سيآتهم . ومما يؤيد ما ذكرناهُ قولهُ عليه الصلاة والسلام : خياركم كل مفتن توّاب ، كما خرّجه الاسيوطي رحمه الله تعالى ، في جامعه الصغير .

ولا شك ان اصحاب الايمان الكامل الحقيقي هم خيارنا من غير شبهة ، فلا يشترط فيهم الحفظ من اتيان الذنوب ، وانما يحفظون من شؤمها وضررها . وقد ذكر قدوة اهل التحقيق الشيخ محيي الدين ابن العربي ، في كتاب المحكم المربوط فيما يلزم اهل طريق الله من الشروط قال : ويجب على المريد ان يعتقد في شيخه انه عالم بالله ، ناصحٌ لخلق الله ، ولا ينبغي لهُ ان يعتقد في شيخه العصمة في احواله ، وكيف ينبغي ان يعتقد ذلك وقد سمع الله يقول : وعصى آدم ربّهُ فغوى . وقد قال بعض السادة : وقيل لهُ أيعصي العارف . فقال : وكان قدر الله قدراً مقدوراً . وصحب تلميذٌ شيخاً فرآه يوماً قد زنى بامرأة فلم يتغيّر في خدمته ولا اختل في شيء من مرسومات شيخه ، ولا ظهر منهُ نقص في احترامه . وقد عرف الشيخ انه رآه . فقال له يوماً : يا بني عرفتُ انك رأيتني حين فعلتُ بتلك المرأة ، وكنتُ انتظر نفارك عني من اجل ذلك . فقال له التلميذ : يا سيدي ، الانسان متعرّض لمجاري اقدار الله عليه ، واني من الوقت الذي دخلتُ الى خدمتك ما خدمتُك على انك معصوم ، وانما خدمتُك على انك عارف بطريق الله ، عارف بكيفية السلوك عليه الذي هو طلبي ، وكونك تعصي شيء بينك وبين الله تعالى ، لا يرجع علي من ذلك شيء . فما وقع يا سيدي منك شيء يوجب نفاري وزوالي منك ، وهذا هو عقدي . فقال لهُ الشيخ : وفّقت وسعدتَ ، وهكذا هكذا والا فلا لا . ويرع ذلك التلميذ بعد ذلك وجا منه ما تقرُّ العين به من حسن الحال وعلوّ المقام . انتهى .

واما ما يحتج به بعض اهل الرسوم من قول ابي يزيد البسطامي رضي الله عنه : اذا نظرتم الى احد تربع في الهوى فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدون هذا الامر والنهي. فليس معناه حتى تجدوه معصوماً ، او حتى تجدوه محفوظاً من الوقوع في المعاصي والذنوب ، وانما معناه حتى تجدوه يترك الامر ويفعل النهي مصراً على ذلك من غير توبة . والاصرار امرٌ خفيٌ لا يحكم به بمجرد المداومة على فعل المعصية ما لم يطلع على النيّة والقصد ، فقد يفعل الانسان المعصية في اليوم الواحد الف مرّة ويتوب منها في كل مرّة ، فلا يكون مصراً عليها وقد يفعلها في السنة مرّة وهو مصرٌ عليها . ومن العجائب ان الذي يحتج بقول ابي يزيد هذا بحسب غرضه في انكار احوال معاصريه من اهل الله تعالى ، يعرضُ عن قول ابي يزيد ايضاً : ما في الجبة الا الله ، ونحو ذلك من مقالاته التي ينكرها هذا القائل ويعترض فيها على ابي يزيد من جهله بكلام اهل طريق الله تعالى . وقد ثبت ذلك عن ابي يزيد ولهُ معنى صحيح يذوقهُ اهل الله تعالى في ساعة غيبتهم عن الاكوان ، وربما يقال وهو الاقرب ، ان معنى قول ابي يزيد ذلك : انكم اذا رأيتم رجلاً تربع في الهوى فلا تغتروا به ، وقولوا لو كان ولياً لله تعالى كما يزعم لما كان جاهلاً بشيء من امره ونهيه ، لما كان جاهلاً بمعاني صفات ربه واعيانه ، لما كان جاهلاً بمعاني التجليات الالهية ، لما كان جاهلاً باطوار الولاية والنبوّة والرسالة ، لما كان جاهلاً بحقائق الكائنات الملكية والملكوتية اذا ظهر لكم جهله بشيء من ذلك ، وقولوا لو كان ولياً لله تعالى لما كان منكراً شريعة نبي من الانبياء عليهم السلام ، لما كان كافراً بربه جاحداً لشيء مما يجب الايمان به ، لما كان مجسماً في اعتقاده بربه ، لما كان مشبهاً لله تعالى ، لما كان يعتقد في الله تعالى مكاناً او جهةً او كل مكان او كل جهة او حلولاً او انحلالاً او اتحاداً ، اذا ثبت شيء من ذلك عندكم انه يعتقده وليس لهُ تأويل البتة ولو الى سبعين وجهاً فحينئذ لا تغتروا به ، وستروا ما رأيتم منهُ استدراجاً كما يصدر من بعض الرهبان الكافرين بالله تعالى ، المنكرين نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، المكذبين بالقرآن العظيم من الامور الخارقة للعادة كالطيران في

الهواء بسبب كثرة الرياضة والدخول في عالم الصفاء الذي هو اكشف حجاب عن الله تعالى من عالم الكدر من ذلكَ اهل طريق الله تعالى ، ولا تقولوا لمن رأيتموهُ يعصي الله تعالى بفعل كبيرة او صغيرة مع ثبوت التصديق في قلبه بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبجميع ما جاء بهِ عن الله تعالى معترفاً ذلك بلسانه ، لو كان هذا ولياً لله تعالى لما عصى ربه كيف وقد سمعتم الله يقول : وعصى ادم ربه فغوى ، فاتقوا الله في اهل طريقه ولا تحاربوا لهُ ولياً ، فانه ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عن الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد اذنته بالحرب ، اي اعلمته اني محارب له ، ومن حاربه الله تعالى فهو هالك في الدنيا والآخرة ، وهذا مقدار ما يجب علي في نصيحتكم ، واعملوا على ذلك ترشدوا ان شاء الله تعالى .

وأما احوال الايمان فالاشتياق الى الله تعالى ومحبة لقائهِ ومحبة كلامه القديم ومحبة انبيائهِ عليهم السلام ومحبة المحافظة على اوامر الشريعة ونواهيها والحزن عند انتهاك حرمة من حرمات الله تعالى ، والخوف من الله تعالى والرجاء منهُ ورؤية التقصير من نفسهِ في اداء حقوق مولاه وان اتى بعمل الثقلين لما يشاهد من عظمة المعبود واليأس من تأثير غير الله تعالى في نفع او ضرر ومدافعة الله تعالى عنهُ ونصرة الله لهُ ، الى غير ذلك . فأمَّا الاشتياق الى الله تعالى فهو أمرٌ يجيدهُ المومن في قلبه احياناً فتهمّ روحهُ بالخروج فيمنعها هذا الجسم الذي هو سجنها في عالم التكليف لاخراج ما في خزانتها من الاعمال المودعة لله تعالى من خير وشرّ حتى يفرغ ما فيها ، ولهذا كان بعض الصوفية اذا اخذهُ هذا الحال ، يعني حال الشوق الشديد المزعج المنبعث من مقام التنزيه التام يصرخ ويدور في الحلقة ويتواجد ولا يكاد يضبط نفسه من زيادة الحنين الروحاني الى حضرة المستوى الرحماني . وقد روي عن مالك ابن انس رضي الله عنه انه سُئل عن هؤلاء المتواجدين فقال دعهم يفرحوا بربهم ، وكذلك نقول في اهل التواجد الصحيح . وأما ما يفعله الجهلة بالله تعالى وبصفاتهِ وبرسله وبانبيائهِ وبشرائعهِ ممن ينتسب الى الصوفية وهم بعد لم يصحّ ايمانهم فلو فتشتهم وجدتهم يعتقدون في الله تجسيماً او تشبيهاً او جهةً او مكاناً وربما يصرّحون

بذلك اعتقاداً منهم ان ذلك محض الايمان لكمال جهلهم بالله تعالى ، فانهم يفعلون من الرقص والتواجد شيء ممنوع منه شرعاً لعدم صحته لهم في معرفة الله تعالى واصحاب الحال الصحيح لا يقومون للتواجد الا عن ضرورة وغلبة حال فيُعذرون في ذلك ويقرُّون على ذلك ان فعلوهُ في الزوايا او في البيوت او في المساجد او في اي مكان كان ، لان ذلك عبادة الارواح عند وصولها الى حضرات التجلي اندهاشاً وتحيراً مما ترى ، وهذا لا يعتري في الغالب إلّا اصحاب البداية وأما الراسخون في العلم فهم اهل تمكين لا تلوين فلا يعتريهم شيء من ذلك ، وأمّا محبة لقاء الله تعالى فهو حال يعتري المؤمن احياناً ولا يلزم ان يدوم له ، فان بعض الانبياء كره الموت . قال الشاعر :

وخوف الردى آوى الى الكهف اهلهُ وعلّم نوحاً وابنهُ عملَ السفن
وما استعذبتهُ روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتي عدن

ومتى اعترى مؤمناً هذه الحال كان دليلاً على ان الله تعالى أحبَّ لقاءهُ كما ورد في الحديث : ان من أحبَّ لقاء الله تعالى أحبَّ اللهُ لقاءهُ ، فكان ذلك من الله تعالى نظير اشتياق العبد الى ربه ، فان المحبة يتبعها الشوق من الجانبين . قال تعالى : يحبهم ويحبونهُ ولهذا قال تعالى في حق الكفار : ولتجدنهم احرص الناس على حياة ، وذلك لان الله تعالى لا يحبُّ لقاءهم فلهذا لا يحبّون لقاءهُ . وقد بيّن الله تعالى لنا سبب ذلك منهم بقوله : ولن يتمنوهُ ابداً بما قدّمت ايديهم ، فعلمنا ان سبب عدم محبتهم لقاء الله تعالى ، كثرة ما يعلمون من مخالفة الله تعالى في عصيان رسله عليهم السلام والتكذيب بهم . وأمّا المؤمنون اذا كرهوا الموت في بعض احوالهم فان ذلك طمع منهم في ارشاد الناس الى الله تعالى وفي اطالة خدمته تعالى في الارض ، لا بسبب ما يقترفون من الذنوب ، لان التوبة تصحبهم في جميع شؤونهم واعمال الخير المكفرات للذنوب . فقل ان يباتوا مصرّين على شيء من الذنوب عملاً بقوله تعالى : وتوبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون .

وأمّا محبة كلامه القديم فهي حال تعتري المؤمن في بعض اطواره اذا انفتحت بصيرته لشيء من لطائف معانيه فيكاد يأكل اوراق المصحف من

شدّة الشوق والانزعاج ، ويكاد يختطف الفاظ التالي من حرصه على المعاني القرآنية . واما البكاء عند التلاوة والسماع فهو اقلّ حال من احوال المؤمنين ، والمعتبر في ذلك بكاء المحبة والشوق والهيبة والخشوع لا بكاء الخوف والرجاء فان ذلك من حظوظ النفس . قال تعالى : الم يأن الذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق . وهذه الآية صريحة في صحة احوال المؤمنين التي هي خارجة عن بقايا الانفس .

واما محبة انبيائه عليهم السلام ، فهي الحالة الصحيحة الدالة على قوة الايمان كما ورد في الحديث . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لن يكمل ايمان احدكم حتى اكون أحبّ اليه من نفسه وولده والناس اجمعين . والمراد بهذه المحبة وجدانها في القلب حتى تكون دليلًا على كمال حال الايمان ، لا التكليف لها بحمل القلب عليها ، ومن منّة الله تعالى على كل مؤمن ان تحدثه نفسه انه لو كان حيًّا في زمان النبيّ صلى الله عليه وسلم لفداه من كل ما يؤذيه بروحه وبدنه وماله وولده والناس اجمعين محبةً فيه صلى الله عليه وسلم ومن محبته صلى الله عليه وسلم يتوصل المؤمن الى محبة جميع الانبياء الماضين لانه صلى الله عليه وسلم جاءنا بشرح احوالهم كما كانوا عليها من غير زيادة ولا نقص ، فيجد المؤمن محبتهم في قلبه من غير تكلف المحبة التامة . قال الشاعر :

سمعتُ اوصافك الحسنى فهمتُ بها والأذن تعشق قبل العين احيانا

والسرّ في ذلك انهم كانوا عليهم السلام ، مظاهر امر الله تعالى في عالمنا هذا من التجلي الجمالي فهم محبوبون لكل مؤمن أحب الله تعالى ، ويلزم من محبتهم محبة الصالحين من امتهم الذين صدقوا في جميع ما جاءوا به من عند الله تعالى . قال الشاعر :

أمرّ على الديار ديار ليلى أُقبّلُ ذا الجدارا وذا الجدارا
وما حبّ الديار أهاج شوقي ولكن حبّ من سكن الديارا

ومن احوال المؤمنين ايضاً في مقابلة ذلك بغض الكافرين بالله تعالى والمدّعين للالوهية كفرعون ونمرود واتباعهم ، وكذلك كل كافر الى يوم القيامة لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله الآية .

وهـذا البغض على مقدار محبة الانبياء والصالحين ، فـان كانت هذه المحبة كثيرة كان ذلك البغض كثيراً وان قلّت قلّ هذا البغض طرداً وعكساً . والسرُّ في ذلك ان هؤلاء الكفار المكذبين بانبياء الله تعالى مظاهر الله تعالى ايضاً في عالمنا هذا لكن من التجلي الجلالي فهم مبغوضون لله تعالى ، كما ان اصحاب التجلي الجمالي محبوبون لله تعالى ، ولا يكمل العارف حتى تتمّ فيـه الصورة الالهية فيحبّ من أحبّ الله ويبغض من ابغضه الله وجداناً روحانياً لا تكلُّف فيه ، كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل ما اسألكم عليه من أجر وما انا من المتكلفين . وكل من احبّ كافراً فان ذلك لنقصٌ في ايمانه اذا فتّش نفسه وانصف حاله وجد ذلك بغير شبهة .

وأما محبة المحافظة على اوامر الشريعـة ونواهيها فهيَ من احوال المؤمن اللازمة له سواء وفّقه الله تعالى للعمل بموجب تلك الاوامر واجتناب النواهي او لم يوفّق لذلك ، أو وفق للبعض دون البعض فلا يزال يحب حالة الموافقة التامة ويُقبل عليها حتى يصادفها ان شاء الله تعالى .

وأمّا الحزن عند انتهاك حرمة من حرمات الله تعالى فهو امرٌ وجداني يجده المؤمن في نفسه لعظم شأن الدين المحمدي عنده . قال تعالى ذلك ومن يعظّم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، وهي جميع شعيرة بمعنى مشعرة من الشعور وهي العلم ، اي معالم الله التي تدلُّ عليه وتعلمنا به ، وهي احكامهُ من الامر والنهي ، فترى المؤمن يحزن عند صدور المخالفة ولو صدرت منه ويداخله الغمّ الشديد من اجلها بغضاً فيما يبغضه الله تعالى .

وأمّا الخوف من الله تعالى فهو خوف الاجلال والعظمة والهيبة . قال تعالى: وخافوني ان كنتم مؤمنين . ولم يرد عن الله تعالى انه امر بالخوف من النار، وانما امرنا بالخوف منه لا من النار ، ولكن قال تعالى : فـاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، وتقوى الشيء التحرّز منه بجانبة اسبابه . ومن قال لا اخاف النار ولكن اخاف الله فهو من المحققين في مقـام التوحيد ، وذلك لان النار لا أثر لها في ايلام احدٍ من اهلها ولكن التأثير لله تعالى عنـد النار لا بها ، والمؤلِم في الحقيقة هو الله تعالى بعد تجلّيه في صورة النار، فالنار صورة

والتألم بها صورة مثلها ؛ وكذلك الألم صورة ثالثة . والمقصود بهذه الصور الثلاث واحد لا تقيده هذه الصور الثلاث لانه لا صورة له في ذاتـه ، وان كانت الصور كلها له عندنا ، فافهم الاسرار تكن من اولي الابصار .

وأمّا الرجاء منهُ تعالى فمن احوال المؤمن لتحققه بنهاية فقره واحتياجه في كل جزء لا يتجزّى من الزمان الى من يحفظ عليه وجودهُ وايمانـه وعقله وحواسه وصحته وانفـاسه وتدبيره في شؤونه كلها في اطواره كلها في عوالمه كلها ، وليس ذلك الّا الله تعالى ، وكلما كثر اطلاعه على احتياجه اليه كثر رجاؤهُ فيه وطمعهُ فيما لديه . وأمّا رزية التقصير من نفسه على كل حال فلمـا يشاهدهُ من عظمة الله تعالى وجلال شأنه . قال تعالى : وما قدروا الله حق قدره . وهذا المشهد اذا أقيم في العبد صغرت في عينه ملوك الارض بل جميع العوالم حتى يصير لا يعظم ما وجب عليه تعظيمه واحـترامه من العوالم الا امتثالاً لامر هذا العظيم الذي اوجب عليه ذلك ، ولولا انه اوجب ذلك عليه ما عظّم ولا احترم شيئاً من ذلك لتحققه بانـه رابح الجميع تحت سطوة قهر سلطانه تعالى ، حتى لا يكاد يكون لشيء من الاشياء وجود البتّة مع هيبة جلاله تعالى . ومن اعترض على الشاعر في قوله :

أيّ عظيم أتقي ايّ مكان ارتقي
وكلُّ مـا قد خلق الله ومـا لم يخلق
محتقرٌ في همـتي كشعرة في مفرقي

فقال عنهُ قد اساء الادب باحتقاره من وجب تعظيمـه من الانبياء والملائكة عليهم السلام ، نقولُ له : ولو اراد لقال كل من ، ولم يقل كل ما ، لان من لمن يعقل ، وما لمن لا يعقل . ومما يُحكى عن ابي الحسن الدينوري رحمه الله تعالى ، انه وقف ليلةً كاملة بعد احرامه بالصلاة على رؤوس اصابعه فسأله من حضرهُ عن سبب ذلك فقال : طافت روحي السماوات والارضين والجنة والنار . وقيل لي هل اعجبك شيء . فقلتُ : لا . فقال لي ح انت عبدي حقاً . ثمّ ان صاحب هذه الشهود على مقدار معرفته بعظمة الله تعالى من حيث تجلّيـه تعالى في جميع الاشياء تصغر عنـه الاشياء كلها من حيث هي اشياء لا من

حيث هي مظاهر الحق ومجاليه عنده فتراه يعظم الشيء من حيثية ويحتقره من حيثية اخرى ، فالاشياء مجالي الحق تعالى عند اصحاب البصائر فهي معظمة مبجلة وهي بعينها حجبه عند العوام فهي محتقرة مستنقصة وهي عندهم اغيار وعند اصحاب البصائر اعيان ، والاغيار بمنزلة الثياب عليها تنتزع عنها في وقت الشهود . وصاحب الحال انما يحتقر جميع الاشياء بعد لبسها تلك الثياب فاذا نزعتها عظمها واحترمها ، واما صاحب المقام فهو يحترمها دائماً اذ الثياب في عينه تشف عما تحتها ، وأما العامة فهم يعظمونها دائماً اذ نظرهم الى الثياب الظاهرة فقط .

وصل

قال تعالى : وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولي المتقين ، والولاية هي تنفيذ القول على الغير شاء او أبى،ولهذا الظالمون بعضهم اولياء بعض،لان بعضهم تنفذ فيه اقوال بعضهم ويأمر بعضهم بعضاً وينهى بعضهم بعضاً اذ لا يعرفون الذي يأمر وينهى منهم من حيثية ان له الولاية عليهم ينفذ قوله فيهم، وانما يعرفونه من حيثية ظهور الامر والنهي منه وصدورهما عنه وأما المتقون الذين جعلوا الله وقاية من نسبة الامر والنهي الى غيره فتوقوا به عن غيره فلا غير عندهم في بصائرهم فان الله وليهم ولهذا قال الله : ولي الذين آمنوا .يعني بانه هو لا غيره يخرجهم من الظلمات يعني ظلمات الاغيار وهي كثيرة كما قال ظلمات بعضها فوق بعض الى النور وهو واحد وهو النور الحقيقي الذي هو نور السماوات والارض . الآية .

وأما اليأس من تأثير غير الله تعالى في نفع او ضرر والمراد من حيث انه غير . واما من حيث انه عين والغيرية ثوبه فهو المؤثر في العوالم في تلك الحضرات التي يقتضيها ذلك الثوب كالسكين مثلاً فان تأثيرها من حيث انها سكين محال ، لان السكينة غير ، وأما من حيث انها بيد الله تعالى داخلة تحت تصريف قدرته في حضرة القطع التي اقامها الله تعالى فيها فهي عينُ المؤثر الواحد والغيرية كالثوب الساتر لما وراءهُ . وعلى هذا جميع الاسباب الظاهرة والباطنة . قال الله تعالى : والله من ورائهم محيط.

وأما مدافعة الله تعالى عن المؤمن فهو من جملة احواله . قال تعالى : ان الله يدافع عن الذين آمنوا . وذلك لان الايمان هو شفوف ثوب عريته فلم يدافع الله تعالى الا عن نفسه ، بخلاف الكافرين فان الله تعالى لا يدافع عنهم ، لان الكفر هو الستر وقد ستروه عنهم بثوب غيريتهم فلم يشف ثوبهم عما وراءه فجهلوه في عين معرفتهم له ، وهذا من اعجب العجائب .

واما نصرة الله تعالى المؤمن فقد قال تعالى : انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويقوم يقوم الاشهاد الآية . فقد اثبت النصرة للمؤمنين في كلا العالمين ، عالم الدنيا وعالم الآخرة . والمراد النصرة على جميع الاعداء من النفس والهوى والشيطان والكافرين والملحدين والجاحدين والحاسدين والمبغضين ، وهذا في الدنيا . واما في الآخرة فالنصرة على الذنوب والآثام والحقوق والتبعات حتى انه تعالى يرضي عنهم خصامهم يوم القيامة ايضاً ويدخلون الجنة ببركة هذا الايمان فينصرهم على جميع ذلك حتى يلحقهم بانبيائهم في مقام الايمان ، وان فاتتهم الانبياء عليهم السلام بمقام النبوة ولهذا عطفهم عليهم في الآية . فكما ان الانبياء عليهم السلام ، لا يضرهم ذنب في الدنيا ولا في الآخرة فكذلك اصحاب هذا الايمان الكامل الحقيقي لا يضرهم ذنب في الدنيا ولا في الآخرة كما قدمنا . وهذا معنى الحفظ الذي نظيره العصمة في الانبياء والملائكة عليهم السلام .

وأما مقامات الايمان فهي كثيرة . منها مقام التوحيد ، ومقام الصبر ، ومقام التوكل ، ومقام الزهد ، ومقام الرضا ، ومقام الخشية ، ومقام الانابة ، ومقام الاعتصام ، ومقام الحياء ، ومقام المحبة ، ومقام الذل والافتقاد ، ومقام المناجاة في الاسحار ، وربما نبين ذلك في بعض مصنفاتنا ان شاء الله تعالى . فان هذا المختصر لا يسعه .

واما منازل الايمان فهي جميع جوارح العبد الظاهرة والباطنة واصلها القلب واول ما ينزل الايمان فيه ثم يتفرق منه في بقية الاعضاء ، وله في كل صورة جارحة مخصوصة لائقة بتلك الجارحة فيسمى فيها باسم خاص لا يسمى به في الجارحة الاخرى ، فهو في القلب تصديق ، وفي العقل اذعان وتسليم ، وفي

النفس طمأنينة وانقياد ، وفي العين نظرٌ الى بدائع صنع الله تعالى ، وفي الاذن سماع كلام الله تعالى وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم وكلام الصالحين من الأُمة ، وفي اليد تناول ما فيه من طاعة الله تعالى ، وفي الرجل المشي في مرضاة الله تعالى ، الى غير ذلك من الشعب الكثيرة المتشعبة من الاصل الذي في القلب . فمن اعتبر هذا أدخل العمل في مسمّى الايمان لانه صور الايمان اختلف باختلاف الاعضاء والجوارح . ومن نظر الى الاصل ولم يعتبر الصور الظاهرة لهذا الشيء الواحد وانما اعتبر ذلك الشيء الواحد فقط كابي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى ومن تابعه لم يدخل العمل في مسمّى الايمان بناء على ان صور الشيء اذا زالت لا يلزم ان يزول الشيء بنفسه ، لان الصور عَرَض في الذات والذات ثابتة والصور تُخلع وتُلبس . ارأيت ان المكلف في غير اوقات العبادات اذا زالت عنه صور الايمان الظاهرة او في حالة النوم او الغفلة لا يزول عنه مسمّى الايمان ، بل ولو زالت عنه الصور الباطنة في حالة النوم والاغماء مثلاً فان حكم الايمان باقٍ ما لم تتبدّل صورة التصديق بالتكذيب وصورة الاذعان والتسليم بالعناد والمكابرة وصورة الطمأنينة بالزيغ والحيرة والشك فحينئذٍ يزول عنه الايمان ويوجد فيه الكفر والعياذ بالله .

وأمّا اقسام الايمان فثلاثة : كامل وناقص وما هو في حكم ذلك . أمّا الايمان الكامل فهو نورٌ يقع في القلب ويظهر شعاعه في العقل والحواس بحيث اذا عقل شيئاً أو احس بشيء باحد حواسه الخمسة ادرك حقيقة ذلك الشيء من حيث ملكوته ولم تحجبه صورته من حيث ملكه فهو مع الاشياء كلها من حيث هو عينٌ واحدة والاشياء كلها معه من حيث هي عيون كثيرة . قال تعالى : ومن يؤمن بالله يهتدِ قلبه ، يعني الى الحق في كل شيء ، وهذا الوعد من الله تعالى لا شبهة فيه فعلم ان من لم يهتدِ قلبه الى الحق في كل شيء بحيث لا يرى شيئاً ويرى الحق مع ذلك الشيء فهو دليل على انه لم يؤمن بالله بل امن بشيء آخر غير الله صوّره له عقله وخياله . فان الله تعالى لا يتعقل ولا يُتخيّل بل هو اعظم من ان يحيط به العقل والخيال .

وصل

في خبر السوداء والجواب عنه ، روى ابو حنيفة رضي الله عنه باسناده ، عن عطا ابن ابي رباح : ان رجالًا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوه ان عبدالله ابن رواحة كانت له راعية تتعاهد غنمه وان امرها بتعاهد شاة من بين الغنم فتعاهدتها حتى سمنت الشاة واشتغلت الراعية ببعض الغنم فجاء الذئب فاختلس الشاة وقتلها ، فجاء عبدالله ابن رواحة وفقد الشاة فاخبرته الراعية بامرها فلطمها ثم ندم على ذلك ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم النبيّ ذلك وقال . ضربت مؤمنة . فقال : انها سوداء لا علم لها فارسل اليها صلى الله عليه وسلم فسألها اين الله . فقالت : في السماء قال : من انا قالت : رسول الله . قال : انها مؤمنة فاعتقها . انتهى . فهذا دليل من النبي صلى الله عليه وسلم ، انه لا بدّ من اعتقاد التنزيه في حق الله تعالى عن المكان حيث سألها بقوله اين الله مع علمه ان الله تعالى منزّه عن الاينية ليختبرها في ايمانها بالله تعالى هل ايمانها به صحيح موافق لما هو في حقيقة الامر ام غير صحيح ، بل هو مجرّد تشبيه وتجسيم كما يعتقده كثير من الناس . وكان يعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم منها الايمان الصحيح قبل ذلك ، ولذلك عظم لطمها الذي لطمها مولاها وقال عنها قبل ان يراها انها مومنة ، ثم اراد النبيّ صلى الله عليه وسلم ان يري ذلك مولاها فارسل اليها وسألها كما يسأل الجنس عن الجنس مع علمه بكمال تنزيه الاله الزاماً لمولاها فيما قال عنها انها لا علم لها . وكان جوابها انها قالت في جواب قوله اين الله ، انه في السماء ، تريد انه في العلو والسمو والارتفاع عن ان تُدرك له أينية . فان الله تعالى خلق عالم الاجسام وخلق فيه سماء وارضاً ، كما خلق عالم الارواح وخلق فيه سماء وهي العقل وأرضاً وهي النفس . فلفظ السماء في الاصل اسم لسماء الارواح ، لان الارواح مخلوقة قبل الاجسام بألفي عام كما ورد في الحديث ، ثمّ انطلق لفظ السماء على هذه السماء المحسوسة سماء الاجسام ، لان عالم الاجسام خُلق مثالًا لعالم الارواح والمقصود ذلك العالم ، ولكن انما يفهم بهذا العالم . فالله تعالى فوق سماء الارواح ، يعني فوق العقول قال تعالى : أأمنتم من في السماء ان

يخسف بكم الارض . والمراد من في سماء العقول ، يعني فوقها ، كما قال في الآية الاخرى : يخافون ربهم من فوقهم . وهذه اينية الله تعالى انه فوق جميع ما تتخيله العقول . ولم يرد ان هذه السوداء اشارت بيدها او بشيء منها الى هذه السماء حتى تقول انها ارادت السماء المحسوسة لا سماء العقل .

وأما الايمان الناقص فهو التصديق المستند الى البراهين العقلية والحجج القطعية فهو تابعٌ لها بحيث لو طعن فيها طاعن دخل الطعن في ذلك التصديق المستند اليها ، وهو ايمان اهل النظر من اكابر علماء الرسوم ، كما يُحكى عن الامام فخر الدين الرازي : انه دخل عليه بعض تلامذته فوجده يبكي فسأله عن سبب ذلك . فقال : مسئلة اعتقد فيها من مدة كذا كذا سنة ظهر لي الآن فساد دليلها ، وانا اخاف ان تكون مسائلي كلها من هذا القبيل . فانظر انصافه رحمه الله تعالى مع غزارة علمه ، وتأمل اهمال علماء الرسوم شأنهم في تحصيل مقام الايمان الكامل مع انه كسبيٌ يحصل بمعاطاة اسبابه وازالة موانعه ، واسبابه الاعمال الصالحة لانه نتيجتها ، وموانعه الاخلاق الرديئة التي في النفوس كالرياء والسمعة والعُجب ونحو ذلك . ومما يعين على تحصيله صحبة اهله وخدمتهم واحترامهم والاخلاص في اعتقادهم والقطع بانهم آثار الالهية لا تأثير لهم البتة . قال تعالى : وجعلَ لكم مما خلق ظلالاً . وانما هم خزان الله تعالى في ارضه اودع فيهم اسراره ، وهو الذي يفتح ابوابهم بمفاتيح عنايته لمن شاء ويغلق ابوابهم عمن يشاء . ومما يعين على ذلك تعظيم مصنفات المشايخ ارباب السلوك ، كمصنفات قدوتنا العارف محيي الدين ابن العربي وامثاله من علماء الحقائق والاعتناء بها ومطالعتها بعد التأدب بالاحكام الشرعية ومعرفة ما لا بدَّ منها ، واستعمال الآداب الشرعية في فهم معاني تلك المصنفات ولا يعترض على شيء لم يفهمه منها ، ولكن ينسب التقصير اليه في عدم الاستعداد ويُحسن ظنه واعتقاده في المشايخ الائمة اصحاب الحقائق من المتقدمين والمتأخرين ، فان الله تعالى لا يخلي منهم زماناً من الازمنة الى يوم القيامة ، لانهم قائمون بعلم النبوّة المحمدية ، كما ان علماء الشريعة قائمون بعلم الرسالة المحمدية ولا يجوز لاحد ان يقول ان الارض تخلو

في زمن من الازمان من علماء الشريعة ، فكذلك لا يجوز ان يقول انها تخلو في زمن من الازمان من علماء الحقيقة ، لان كلا العلمين ورد عن محمد صلى الله عليه وسلم . ولا يلزم من عدم اطلاع الجهال على ذلك فقدُ ذلك من الارض، فان العالم بالشريعة ربما يكون بين الجهلة سنين ولا يلتفتون اليه ولا يعلمون به لانهماكهم فيما هم بصدده من اللهو والغرور وزخارف الدنيا ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . وقد كتبتُ في هذا المبحث رسالةً سميتها : « التنبيه من النوم في حكم واجبد القوم » لا يكمل الانسان الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم إلّا بالايمان بما فيها، كما لا يكمل لاحد الايمان بالله تعالى إلّا بالايمان بما شرحناه من تنزيه الله تعالى في ضمن كتابنا « الردّ المتين على منتقص العارف محيي الدين » . فطالع هذين الكتابين ترشد والله يتولّى هداك .

وأمّا ما هو في حكم ذلك . فهو الايمان الكامل والناقص في حال الغفلة والنوم والموت . أمّا حال الغفلة فصاحب الايمان الكامل فيها لا يُسمّى كافرًا، ولكن يقال كما ورد في الاحاديث ، لا ايمان له نحو قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . كما ذكرنا ، يعني وهو مؤمن ايماناً كاملًا ايمان كشف وشهود تامين . وصاحب الايمان الكامل لا يخلو من الغفلة ولكن منهم مَن يومه وليله سواء ، ومنهم مَن يومه اطول من ليله ، ومنهم مَن ليله أطول من يومه . والويل كل الويل لمن عمره كلُّه ليل . قال الشيخ عمر بن الفارض رضي الله عنه :

على نفسه فليبك من ضاع عمرهُ وليس له منها نصيبٌ ولا سهمُ

وليس منهم مَن عمره كله يوم لانه لا يكون في الدنيا . ومرادنا اصحاب الايمان الكامل في الدنيا لا في الآخرة ، فان الآخرة لا ليلَ فيها ، والليل من احكام الدنيا . وهذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول وهو اكمل الخلق ايماناً : انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله في اليوم والليلة مئة مرّة .

وأمّا صاحب الايمان الناقص فهو في غفلة عن الله تعالى دائمًا ، وانما هو مستيقظ في بعض احيان للحجج والبراهين العقلية لا لله تعالى . وهذه يقظته التي هي اعلى احواله فهو في حالة غفلته غير مؤمن ايمان دليل وبرهان بل هو

مقلد في ايمانه لنفسه المستحضرة للدليل والبرهان في بعض الاحيان وايمان المقلد قد اختلف فيه العلماء ، والذي اذهبُ اليه ، صحّة ايمان المقلّد بشرط ان يكون جازماً قطعاً من غير تردُّد مطابقاً باعتقاده اعتقاد اهل السنّة والجماعة من غير تغيُّر . وأمّا اذا فقد الجزم والقطع وكان شاكّاً مترددّاً متحيراً فهو ليس بمؤمن اجماعاً . قال تعالى : ان يتبعون إلّا الظن . وان الظنّ لا يغني من الحق شيئاً ، وكذلك اذا كان اعتقاده الذي تلّد فيه غيره ليس مطابقاً لاعتقاد ذلك الغير . كمن يعتقد في الله تعالى جهةً او مكاناً او تجسيماً او تشبيهاً ويزعم انه يقلد بذلك اهل السنّة والجماعة ويعدّ نفسه من المسلمين الناجين عند الله تعالى ، هيهات هيهات فان النجاة منحصرةٌ في اعتقاد محمد صلى اللهُ عليه وسلم، واعتقاد اتباعه ، وهو لم يعتقد في الله إلّا ما هو متصف به سبحانه وتعالى . والله تعالى خالق الجهات كلها والاماكن كلها والصور كلها والتشابيه كلها والتخيلات كلها . قال تعالى : الله خالق كل شيء . فلو كان متصفاً بشيء منها فانه قبل ان يخلقها اين كان كان ولا شيء وهو الآن على ما عليه كان . وقال تعالى : ليس كمثله شيء وهو السميعُ البصير . فتيقّظ لما ذكرناهُ فانه نافعٌ جداً ، والله الهادي ولا ربّ غيره .

وأمّا في حالة النوم والموت ، فان المؤمن الكامل يبقى مؤمناً في حال نومه وموته ، بل ربما صفا ايمانه في حالة نومه وموته ، لتجرُّد روحانيته عن مقتضيات البشريّة وكدورتها فيعود الى فطرته التي فطرهُ الله تعالى عليها . ولهذا كانت الرؤيا المنامية من اجزاء النبوّة لان فيها صفاء الروحانية وحسبَ الموت كمالاً في ترقية المؤمن قوله عليه السلام : انكم لن تروا ربكم عزّ وجلّ حتى تموتوا . فكيف ينقص الايمان بالنوم والرؤيا فيه جزء من النبوّة ، كما روى البخاري في صحيحه في كتاب التعبير بسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : رؤيا المؤمن جزء من ستّة واربعين جزءاً من النبوّة . او ينقص بالموت ولا يرى المؤمن ربّه إلّا إذا مات ؟ فالنوم والموت على هذا من المكملات للمؤمن لا من المنقصات لايمانه . وكذلك في الايمان الناقص حالة النوم والموت اكمل من اليقظة لظهور سلطان الفطرة الاصلية فيها وخمود الموانع البشريّة .

وأمّا ثمرات الايمان فعلى قسمين : ثمرات تحصل للمؤمن في الدنيا ، وثمرات تحصل له في الآخرة . وأمّا التي تحصل في الدنيا فالطهارة من نجاسة الشرك. قال تعالى : انما المشركون نجس ، والمواظبة مع الله تعالى في المكالمة معه على الكشف والشهود في اهل الايمان الكامل وفي محبة تلاوة كلامه والاقبال على عبادته في اهل الايمان الناقص. قال تعالى : والذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً . ومن ذلك الكرامات والخوارق للعادات التي يكرّم الله تعالى بها من يشاء من عباده المؤمنين الاحياء او الاموات في الدار الدنيا بين يدي اعداء الله تعالى واصدقائه كما يُحكى عن بعضهم من المشي فوق الماء والطيران في الهواء واستحالة بعض الاحجار ذهباً ونحو ذلك. وامثال هذه الثمرات الدنيوية مما لا يُحصى كثرةً .

وأمّا التي تحصل للمؤمن في الآخرة فهي كثيرة ايضاً ، منها النجاة من عذاب النار ومن الخلود فيه بحيث ان حرّ النار يصير على صاحب الايمان الكامل اذا قدّر الله تعالى عليه الدخول فيه كحر الحمام كما ورد في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما حرّهم على أمتي كحرّ الحمام ، بل ورد ان عصاة المؤمنين يموتون في النار اذا دخلوا فلا يحسون بالالم حتى يعذّبوا بمقدار ذنوبهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا أدخل الله الموحدين النار اماتهم فيها اماتةً فاذا اراد ان يخرجهم منها أمتهم ألم العذاب تلك الساعة . والحديثان في الجامع الصغير للسيوطي رحمه الله تعالى . ومنها ما أعدّه الله تعالى للمؤمنين في الجنة من النعيم الدائم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرَ على قلب بشر . ومنها وهو اعظمها رؤية الله تعالى من الجنة على حسب ما هو عليه سبحانه وتعالى من التنزيه المطلق بلا كيف ولا كيفية ، وليس بينه وبين خلقه قربٌ ولا بعدٌ . الى غير ذلك من الثمرات التي لا تُحصى والفوائد العجيبة التي لا تُستقصى.

* * *

وجاء في آخر باب بيان الاحسان ، وهو الباب السابع والاخير من هذا الكتاب ، ما نصّه بحرفيته :

وقد وقف بنا جواد الفتوح في هذه الساحة التي بابها ان شاء الله تعالى لكل احد مفتوح وتمّ ما قصدناه في هذا المختصر من دهن ثمر التوفيق الذي هو من شجر طوبى معتصر ، والحمد لله على كل حال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع اصحابه وكل الآل وسلم تسليماً . قال مؤلفه رضي الله عنه وارضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه استاذنا وقدوتنا الى الله تعالى ، خاتمة المحققين الشيخ عبد الغني ابن النابلسي رحم الله روحه ونوّر ضريحه ، واعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته وبركات علومه امين . وقد وافق الفراغ في صبيحة نهار الجمعة اواخر شعبان المبارك من شهور سنة خمس وثمانين والف من الهجرة النبوية على صاحبها الف تحية . وكان الفراغ من كتابة هذه الرسالة المباركة نهار الخميس ، الحادي عشر من شهر رجب الفرد سنة اربع وخمسين ومائة والف ، على يد العبد الفقير اسماعيل ابن خليفه الحموي الشامي ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين امين امين امين .